

ومناحيم بيغن هو الذي قال: «لولا النصر في دير ياسين، لما كانت هناك دولة اسرائيل». ولم يخفوا الغاية من مذبحه دير ياسين، وقتها، حين طافت سياراتهم تعلن في مكبرات الصوت الاختيار التالي: أما ان تخرجوا، وأما ان يحدث لكم ما حدث في دير ياسين. وفي كل القرى التي احتلوها، فيما بعد، كانوا يجمعون السكان في الساحة ويقنونهم ساعات تحت الشمس، ثم يختارون أجمل الشباب ويقتلونهم على مرأى من أهل القرية، لكي يضعوهم امام الاختيار ولكي تصل انباء المجزرة الى القرى التي لم تحتل بعد ولكي يفرغوا احقادهم التاريخية المكبوتة. ووجد الاسرائيليون ايضا فتوى قانونية تقول ان العرب باعوا أراضيهم. ومن المؤسف ان تلتقي قناعات عربية معينة مع هذه القناعة الاسرائيلية، دون ان يحاول اصحاب هذه القناعات معرفة ان اليهود لم يملكوا حتى عام ١٩٤٨ اكثر من ٦ بالمائة من مجموع اراضي فلسطين.

— وأنتم . . ماذا فعلتم بأرضكم ؟

● اسأل عم فعلت بنا الارض ؟ قتلت جدي من القهر والانتظار . وشيبت أبي من الكدح والبؤس . وأخذتني الى الوعي المبكر بالظلم . كان جدي ملاكا موفور الحال . وحين حدث ما حدث ، وصار هو « حاضرا غائبا » كان يقضي ايامه امام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر الى مدينة عكا لا لثيء الا ليرى أرضه من خلال نافذة سيارة الباص . يقضي يومه في قراءة الجرائد ويقضي ليله في التأمل واستعادة الذكريات . . . وينتظر . هو الذي رباني وكنت احبه أكثر من أبي الذي كان مشغولا بالضنى واستخراج الخبز من مقالع الصخر . علمني جدي القراءة ومساحة الارض وأعمار الزيتون . وكان يشتري لي كتبا من عكا ويأخذني الى اصدقائه ليفاخر بالطفل الذي يقرأ الجريدة والكتب ويحفظ الشعر القديم ، ولا يخطيء الا في قراءة سورة يس . يقرأ لهم من سيرة عنقرة والزير وروايات جرجي زيدان التاريخية الى ان ينام . وفي الصباح اذهب الى المدرسة التي لا تسجل اسمي لان أبي غير مسجل في ملفات الحكومة . من ذهب الى لبنان وعاد بعد عام او عامين لا يعود مواطننا . ومن جاء من وارسو بعد ألفي سنة يملك الحق والوطن .

وفي ساعة متأخرة من الليل يدق ضابط الشرطة باب البيت الطيني بعصاه ، ويوقظ الاسرة المؤلفة من الجد والجدة والوالدين والابناء الاربعة — وكلهم مكدس في غرفة واحدة هي الصالون وغرفة النوم والمطبخ. يتوجه الضابط الى الجد ليسأله: هل عاد أبناؤك من لبنان ؟ يعترف الجد « بالجريمة » ، ويسوق الضابط الاب والعم الى الاعتقال بتهمة التسلسل الى بلادهم !.

ولم يتوقف جدي عن ممارسة الامل ، فانتقل الى قرية أخرى قريبة من أرضه . وذات صيف احتال على القانون ، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه . وهكذا أتاحت الفرصة لصاحب الأرض ان يشتري ما تنتجه أرضه . وكان جدي قليل الدراية بالتجارة فخسر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلة في حقله القديم وشرح لي ، تحت الشمس ، تاريخ هذا التراب الذي لا تجد فرقاً بسيطاً بينه وبين جلده . كان تعلق جدي بشكل الانتماء الوطني المتجسد في ملكية التراب وحنينه الى اعادة الصلة المتطوعة ، قاتونيا ، والمتلاحمة ، تاريخيا ووجدانيا ، أقوى من البؤس المفاجيء الذي تعرض له نتيجة حرمانه من مصدر رزقه . فلو كان انتمأؤه معيشيا لحل المشكلة بفك هذا الانتماء المعيشي الذي سيضمن له الرخاء . ولكنه آثر الحرمان على بيع الارض ، لم تعد الارض تعني بالنسبة له مصدر العيش كما كانت قبل ان تتحول الى شرط الكرامة . صارت تعني له الآن ، بعد مصادرتها ، مصدر البؤس المعيشي من ناحية وصيانة الكرامة الشخصية والوطنية من ناحية أخرى . وقد فضل المعنى الثاني ومات على مرأى من